# زرقاء اليمامة
# بين الحقيقة والخيال

**أ. عبدالله بن محمد الشايع**

تحدثت كتب التراث كثيرًا عن زرقاء اليمامة التي يضرب المثل في قُوَّة إبصارها، تلك المرأة التي كان لها دور في أحداث اليمامة في عصرها القديم أيام قبيلتي طسم وجديس. ومن يستعرض النصوص الكثيرة التي تكلمت عن هذه المرأة يلحظ أن هناك تفاوتًا في سرد الروايات؛ الأمر الذي يدعو إلى الشك في صحة بعض ما قيل عنها. وقبل أن نستعرض تلك الروايات دعونا نتعرف على اليمامة التي نسبت إليها "الزرقاء" فأقول: "اليمامة" لها اسم عامٍ واسم خاص، فالعام يطلق على إقليم اليمامة الممتد شمالاً حتى قرب مندفن جبل طويق (عارض اليمامة) في رمال "الثويرات" شمال مدينة الزلفي، والممتد جنوبًا حتى وراء قرية الفاو حيث يندفن جنوبًا من السليل والوادي في مكان اشتهر بالمندفن.

أما امتداد اليمامة من جهتي الشرق والغرب فهو من السعة بمكان، وتحديد هذا يجرنا إلى كلام قد يطول، ولسنا هنا في مجال تحديد امتدادها؛ حيث يكفينا معرفة ما يدل عليه لفظ اليمامة بمعناه العام.

أما لفظ اليمامة الخاص: فهو يعني مدينة بعينها تسمى اليمامة وهي قاعدة هذا الإقليم. وما تزال اليمامة بلدة محتفظة باسمها القديم إلى وقتنا الحاضر، وهي واقعة في الجهة الشمالية من محافظة الخرج على خط العرض ٠٠ً ١١َ ٢٤ٓ وخط الطول ٤٦ً ١٩َ ٤٧ٓ، ويوجد فيها آثار مبان قديمة محاطة الآن بسياج. ومن قرى هذه المدينة في عصورها الزاهرة الخرج.

قال البكري: "الخَرْج: بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده جيم؛ قرية من قرى اليمامة"(١). ويبدو لي أن قرية الخرج هذه هي أشهر القرى في تلك الناحية، ولذا نسب القدماء الوادي إليها فقالوا: وادي الخرج.

وقال أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: "الخرج: قرى باليمامة كثيرة ونخيل لبطون بكر بن وائل، قال ذو الرمة: بنفحة من خزامى الخرج هيجها"(٢).

ويقول ياقوت الحموي في معجمه: "الخرج... واد فيه قرى من أرض اليمامة لبني قيس بن ثعلبة بن عُكابة من بكر بن وائل في طريق مكة من البصرة، وهو من خير واد باليمامة، أرضه أرض زرع ونخل قليل..."(٣).

---

(١) أبو عبيد البكري، معجم ما استعجم، دار الكتب العلمية، ١/١١٩.

(٢) أبو القاسم محمود الزمخشري، الأمكنة والجبال والمياه، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار عمار، ص٩١.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ٢/٣٥٧.

أما الشيخ عبدالله بن خميس فقد أطال الكلام عن الخرج، ومما قاله: "وهكذا الخرج في العصور البائدة، أما في الجاهلية فقد كان الخرج - جو اليمامة - منافسًا كبيرًا لحَجْر - الرياض - فقد كان في الخرج - جو الخِضْرِمَة - وهي قصبة المنطقة ومدينتها العتيدة وحصنها المنيع. وحَولها الحصن العظيم الذي يقال له الجَوْن وإليه أشار المتلمس بقوله:

ألم تر أن الجون أصبح راسيًا    تطيف به الأيام ما يتأيس (؟)

عصى تبعًا أيام أهلكت القرى    يطان عليه بالصفيح ويكلس

والخضرمة تقع من الخرج قرب قرية اليمامة المعروفة الآن بالخرج، ويرى الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - أنها هنالك، وأنها قاعدة ملك هوذة بن علي السحيمي رأس بني حنيفة آنذاك، مع أن بني سحيم كانت قاعدة بلادهم قَرَّان - القرينة اليوم - في وادي الشعيب تحت حريملاء وفوق ملهم، وبذلك جزم أبو عبيد البكري في كتابه معجم ما استعجم، وقد أيد هذا القول من المؤرخين ابن لعبون في تاريخه، ولا شك أن بني سحيم هم رهط هوذة بن علي وفي شعر الأعشى ما يشير إلى أن هوذة كان في قَرَّان في قصيدته التي مطلعها:

أحيَّتك تيا أم تركت بدائكا    وكانت قتولاً للرجال كذلكا

إلى أن قال:

إلى هوذة الوهاب أهدي مديحتي　　أرجي نوالاً فاضلاً عن عطائكا
تجانف عن جو اليمامة ناقتي　　وما عمدت من أهله لسوائكا

فتجانف الناقة عن جو معناه تركه جانبًا، وما عمدت من أهله.. فمن هنا بمعنى اللام يعني وما عمدت لأهله سوى أنها عامدة لك..."(٤).

**التعليق:**

١ - نجد هنا أن الأستاذ عبدالله بن خميس، وهو مؤلف معجم اليمامة يقول: "أما في الجاهلية فقد كان الخرج - جو اليمامة - منافسًا لحَجْر... فقد كان في الخرج جو الخضارم وهي قصبة المنطقة". أقول تعليقًا على هذا: هناك فرق بين الخرج وبين جو اليمامة أو جو الخضرمة، فمن النصوص الواردة في كتب علماء المنازل والديار يستدل على التفريق بين المكانين، وأن لكل واحد اسمه الخاص به في الجاهلية وصدر الإسلام مع تقاربهما المكاني. يقول الهمداني وهو يصف الطريق من نجران إلى اليمامة: "... من نجران إلى العقيق أربع مراحل، ومن العقيق إلى الفلَج سبع لطاف، ومن الفلج إلى الخرج ثلاث مراحل خفاف، ومَن الخرج إلى الخضرمة مرحلة..."(٥).

---

(٤) عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ١/ ٣٧٣.

(٥) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، دار اليمامة، ص٣١٢.

فهذا يدلنا على أن الخرج شيء والخضرمة شيء آخر. أما الحربي - صاحب كتاب المناسك وأماكن طرق الحج - فعندما عدد البلدان التي يصلى فيها جمعة قال: "... ثم المنبر بجو بموضع من جو يقال له الخضرمة، وأهلها قوم من ربيعة يقال لهم السعول. ثم المنبر بالخرج وأهله قيس بن ثعلبة. والمنبر بالمجازة وأهلها بنو هزان من ربيعة"(٦).

٢ - مما يدل على أن صاحب معجم اليمامة غير متأكد من هذا التحديد للخضرمة قوله بعد ذلك: و"الخضرمة تقع من الخرج قرب قرية اليمامة المعروفة الآن بالخرج"، ويرى الشيخ حمد الجاسر أنها هنالك وأنها قاعدة ملك هوذة بن علي السحيمي. ثم أردف قائلاً: "مع أن بني سحيم كانت قاعدة بلادهم قران - القرينة اليوم في وادي الشعيب تحت حريملاء". أقول: إني مع الرأي الذي قال به شيخنا حمد الجاسر - رحمه الله - وهو ما أورده الشيخ في كتابه مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ. حيث قال هناك: "وتقع الخضرمة في جو في أسفل وادي الخرج في الموضع الذي تقوم فيه بلدة اليمامة في العهد الحاضر، أو قريب من ذلك الموضع. وكان هوذة بن علي السحيمي الحنفي من تلك البلاد التي انتشرت فيها بنو حنيفة في ذلك العهد فامتد سلطانه على اليمامة كلها، وصار يحمي التجارة التي تأتي من بلاد الفرس، ومن

---

(٦) إبراهيم بن إسحاق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، ص٦١٧.

شرق الجزيرة حتى تبلغ سوق حجَر وغيره من أسواق الجزيرة"(٧).

ثم إن تشكيك الشيخ عبدالله بن خميس حول قاعدة ملك هوذة بن علي لكون قاعدة بلاد بني سحيم هي قران تشكيك لا مسوغ له، كما أنه لا وجه لاستشهاده بقول الأعشى على الرأي الذي يميل إليه:

تجانف عن جَوّ اليمامة ناقتي    وما عمدت من أهله لسوائكا

حيث فسر معنى البيت تفسيرًا يؤيد ما يقول به من رأي، من أن ناقة الأعشى تجانفت عن جو اليمامة، أي تركته جانبًا لتستمر في سيرها إلى قرَّان مقر إقامة هوذة. أما التعليل بأن معنى حرف الجر مِنْ هو اللام فهو تعليل غير قوي. وياقوت الحموي عندما أورد هذا البيت في معجمه "رسم الجَوّ" أبدل حرف الجر "في" بالحرف "عن" حيث قال: "وقال بعضهم:

تجانف عن جَوّ اليمامة ناقتي    وما عمدت من أهله لسوائكا

وظني أن حروف الجر لو اجتمعت متضافرة على لوي خطام ناقة الشاعر الأعشى عن قصدها لمقر سكنى هوذة بن علي في جو اليمامة إلى قُرَّان فلن تقوى على ذلك؛ لأن مقر سكنى الأعشى في منفوحة. فإذا افترضنا أن مقر هوذة في قُرَّان فما الذي يحمله على التوجه مع الطريق المعاكس - أي باتجاه جو اليمامة - لتتجانف ناقته عن أهله؟!

---

(٧) حمد الجاسر، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، ص٤٥.

وكان الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - قد انتقد من قال بهذا الرأي وهو البكري في كتابه معجم ما استعجم، حيث قال الجاسر في كتابه مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ تحت عنوان (حَجْر عند ظهور الإسلام): "ولما ظهر الإسلام كانت زعامة اليمامة وما حولها لِهَوْذة بن علي السُّحَيْمي الحنفي، وكان يسكن جَوّ الخضارم في الخرج، فكتب إليه رسول الله ﷺ كتابًا يدعوه إلى الإسلام هذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هوذة بن علي: سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر فأسْلِمْ تَسْلَمْ، وأجْعَل لك ما تحت يدك. ولكن هوذة كتب جوابًا يقول فيه: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله؛ وأنا شاعر قومي، وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعْكَ. ولما بلغ النبي ﷺ جوابه قال: لو سألني سَيَابَة - أي بلحة - من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه!. فلم يلبث هوذة إلاَّ قليلاً ثم توفي. ويرى بعض المؤرخين أن منزل هوذة كان في قُرَّان بقرب مَلْهَم، ولكن الصحيح أنه كان في جَوّ في الخرج، وليس جَوّا الواقع في البَطِين بقرب المزاحمية كما توهم بعضهم.

وكان ثُمَامة بن أثال الحنفي يسامي هوذة بن علي في الشرف، وهو من أهل حَجْر. ولما بعث الرسول ﷺ الرسل إلى ملوك العرب لدعوتهم إلى الإسلام بعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة كما يعبر ابن هشام..."(٨).

---

(٨) حمد الجاسر، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، ص ٤٥- ٤٩.

ومع هذا وذاك، فإن قُرَّان - القرينة حاليًا - ليست مؤهلة لأن تكون مقر حكم لملك سيطر على اليمامة، وعلى طرق التجارة مثل هوذة بن علي الذي لعلو شأنه ألبسه كسرى تاجًا. ثم أين هي الآثار الباقية في قُرَّان لتدل على أنها كانت قاعدة لحكم ملك يقصده الشعراء مثل الأعشى بغية نواله؟! أما اليمامة فآثارها باقية حتى الآن، ولأهمية هذه الآثار؛ فقد أحيط ما تبقى من آثارها القديمة بسياج حتى يحين التعرف على ما تحت الأنقاض.

صحيح أن قُرَّان بلاد لبني سحيم، ولكن ألا يمكن انتشارهم خارجها؟ إن أقوال المؤرخين وعلماء البلدان تفيد بأنهم سكنوا جَوّ اليمامة، ومن هذه الأقوال ما ذكره الهمداني بقوله: "اليمامة: أرض اليمامة حَجْر وهي مصرها ووسطها ومنزل الأمراء منها وإليها تجلب الأشياء، ثم جَوّ وهي الخضرمة وهي اليمامة وهي من حَجْر على يوم وليلة وفيها بنو سُحَيْم وبنو ثمامة وبنو عامر بن حنيفة وبنو عجل"(٩).

وقد ذكر صاحب كتاب المناسك أن في السُّحَيْمِيَّة منبرًا، والسحيمية هذه تقع وسط جبل طويق شمال حريملاء والقرينة - قران قديمًا - وقد حددت مكانها أثناء تحقيقي لمسار الطريق التجاري الذي يمر بها، ومن هنا نعرف أن بني سحيم يقطنون أكثر من موضع في إقليم اليمامة.

---

(٩) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، دار اليمامة، ص٣٠٧- ٣٠٨.

هذا التباين في وجهات النظر حول تحديد موضع اليمامة - جَوّ - والتي تعددت أسماؤها حسب قصد القائل، فإذا قُصِدَتْ البلدة قيل جَوّ وإذا قصدت البلدة وما حولها قيل الخضرمة أو جَوّ الخضرمة أو جو اليمامة، وهذا مثل ما اعتاد الناس عليه منذ زمن ليس بالبعيد من تسمية العارض ويقصدون به تحديدًا الرياض وما حوله من نخيل وقرى.

وما دمنا تعرفنا على حَجْر اليمامة وأنه المكان الذي قامت عليه الآن مدينة الرياض، وأن اليمامة هي تلك البلدة التي ما زالت محتفظة باسمها القديم حتى يومنا هذا، وأن هذه البلدة هي التي ألقت الزرقاء من أحد بُتُلها تلك النظرة التي جَرَّت عليها وبالاً؛ دعونا نلق نظرة على ما قيل عن زرقائنا الكحيلة التي أنزلت من ذاك البنيان الشامخ.

## زرقاء اليمامة:

عند بداية تدوين تاريخ البلدان وما وقع فيها من الحوادث، اهتم المؤرخون بتدوين أماكن التحضر ومقر الحكام والأمراء مثل الشام والعراق وبلاد فارس والروم؛ أما تلك النواحي البعيدة عنهم مثل منطقة اليمامة فلم يكتبوا عنها إلاَّ القليل الذي استقوه من أفواه الرواة.

ومعروف أن الروايات المتناقلة بشأن الأحداث القديمة يشوبها شيء من الزيادة والنقصان، مع ما يعتورها من المبالغة المفرطة في وصف الحوادث إلى الحد الذي يجعل القارئ يشك في صحة ما يقرأ.

ولعل حكاية زرقاء اليمامة وما قيل من أنها ترى الأشياء من مسافة بعيدة - أوصلها بعضهم إلى ثلاثة أيام لسير الإبل - خير مثال على تلك الروايات المبالغ فيها، ولهذا ضاعت الحقيقة في ثنايا تلك الأقاويل.

والتشكيك في صحة بعض الحوادث التاريخية منشؤه جناية القُصَّاص (الحَكَاوِيَّة) الذين اتخذوا من تشويه التاريخ مصدرًا لرزقهم، بحيث نصبوا أنفسهم رواة للقصص التاريخية فصاغوها بشيء من الخيال والمبالغة؛ إرضاءً واستثارة لمشاعر من يستمع إلى حكاياتهم من بسطاء الناس؛ فقد كان هؤلاء القصاص يتنافسون في حبك تلك القصص الخيالية التي استقوها من الحوادث الواقعية.

ومع هذا فإن القصص المستقاة من الروايات التاريخية مأخوذة بلا شك من حوادث حصلت، وعلى سبيل المثال فإن تغريبة بني هلال حقيقة واقعة، ولكنها أعطيت شيئًا من خيال القصاص؛ حتى أن الناس تصوروا أن بني هلال عمالقة ذوو قدرات خارقة في القوة والشجاعة؛ بحيث نسب إليهم كل عمل جبار لا يدرى من نفذه من الأمم السابقة، كالشواهد الأثرية المحيرة وآبار المياه القديمة وغيرها، وما هذا إلاَّ ناتج من حبك القصص التي تحكي عن مغامراتهم وبطولاتهم. وإنك لتعجب من سعة خيال هؤلاء المؤلفين لتلك الحكايات المنحولة وقدرتهم على نظم الأشعار الطويلة المؤيدة لما يسردونه من قصص، حتى أصبحت تلك الروايات يرددها الناس في مسامراتهم، وكل يزيد أو ينقص فيها.

وقد طبقت شهرة بني هلال الآفاق بحيث صار لهم موضع قدم في جميع الأقطار العربية، مثلهم مثل عنترة بن شداد صاحب البطولات الخارقة التي روج لها القصاص، فلا تكاد تسافر إلى قطر عربي إلاَّ وعنترة بن شداد كان له صولات وجولات في فيافيهم!!.

شهرة بني هلال طبقت الآفاق بحيث صار لهم موضع قدم في جميع الأقطار العربية

وإنها لمهمة صعبة أمام الباحث عندما يريد استخلاص الحقيقة من ركام الروايات الخيالية. فهل نتمكن هنا من انتشال حقيقة زرقاء اليمامة وما جرى لها من خلال تلك الروايات العديدة المتضاربة التي أفقدتنا حقيقة أمرها؛ تلك الحقيقة التي اختلطت بالخيال مثلما اختلط كحلها بدمها عندما ساح على وجنتيها؟!!، أملي أن نتمكن من هذا.

## خلاصة ما قيل عن زرقاء اليمامة:

كثرت الأقوال في زرقاء اليمامة وما جرى منها وما جرى عليها، ولو تطرقت إلى ذكر كل ما قيل عنها في المراجع القديمة لأطلت القول إطالة لا مبرر لها، ولعلي أكتفى بما لخصه شيخنا حمد الجاسر - رحمه الله - من تلك الأقوال حيث قال وهو يتكلم عن قبيلتي طَسْم وجَدِيس: ".. ويرى المؤرخون في سبب هَلاك هاتين الأمتين قصة هي إلى الخرافة أقرب منها إلى الحقيقة، إلاَّ أنها على درجة من الإمتاع والطَّرافة، وشهرتها في كتب التاريخ تغني عن إيرادها كاملة؛ فلذا نكتفي بخلاصتها: كانت السيطرة لِطَسْم على جَدِيس، والملك من طسم كان لا ينهاه شيء عن تماديه في

الظلم والطغيان، حتى بلغ به الأمر إلى أنه حكم بألاَّ تُزَفّ بكْرٌ إلى بعلها من جديس حتى تُدْخَلَ عليه، فاستثارت امرأةٌ منهم نَخَوْةَ قومها، وكانوا أقل وأضعف من طسم، فعمدوا إلى الحيلة بأن دفنوا سيوفهم وأسلحتهم في الرمال، ودعوا الملك وقَوْمَهُ إلى وليمة أقاموها لهم فلما حضر هو وجنده ثار الجديسيون عليهم بالسلاح فقتلوهم، فاستجار الطسميون بأحد ملوك اليمن، فغزا نجدًا، وأوقع بجديس في الخرج وَقْعَةً منكرة، وخَرَّبَ البلاد، وهدم الحصون.

وكانت زرقاء اليمامة - وهي امرأة من طَسْم - مُتَزَوِّجةً في جَدِيس وكانت حادة البصر، بدرجة يبالغ القصاصون في وصفها، فأنذرت الجديسيين حينما أبصرت الغزاة من مسافة بعيدة ولكنهم لم يصدقوها، فصبحهم الجيش فقضى عليهم وقتل الزرقاء، وكان اسمها اليمامة فسمي الإقليم باسمها على ما يروي المؤرخون الذين يوردون القصة مطولة، موشاة بكثير من الشعر المقول على ألسنة الجديسيين، وهو مَصْنُوعٌ بعد عهدهم بأحقاب طويلة، صنعه القصاص عند بدء تدوين التاريخ في القرن الثاني الهجري فما بعده. وأقدم شعر صحيح سجل تلك الحادثة هو شعر الأعشى وهو من أهل هذه البلاد، من بلدة منفوحة ومن شعره:

ما نَظَرَتْ ذاتُ أَشْفارٍ كَنَظْرَتها
حَقًّا كما صدق الذِّئبيّ إذ سجعا
إِذْ قَلَّبَتْ مُقْلَةً لَيْسَتْ بِكَاذِبَة
إِذْ يَرْفَعُ الآلُ رَأْسَ الكلْبِ فَارْتَفَعَا

قَــالَـتْ أرَى رَجُــلاً فـي كَـفِّــهِ كَــتِفٌ
أو يَـخْـصِـفُ النَّعْلَ لَـهْـفي أيَّةً صَنَعَـا
فَكَذَّبوها بما قَــالَتْ فَـصَـبَّـحَـهُمْ
ذُو آل حَسَّان يُزْجي الموتَ والشّرَعَا
فَـاسْــتَنْزَلوُا أَهْلَ جَــوٍّ من مَنَازلهم
وهَدَّمُوا شَامِخَ البُنْيَان فَاتَّضَعَا"(١٠)

انتهى ما قاله الشيخ حمد الجاسر مختصرًا، أما ياقوت الحموي فقد أسهب كثيرًا في كلامه عن اليمامة في كتابه معجم البلدان وأورد أشعارًا يبدو أن بعضها منحول، وسأعرج على شيء مما قاله لاحقًا حسبما تقتضيه الحال، وقد أورد أبيات الأعشى التي ساقها الشيخ الجاسر، مع اختلاف يسير في بعض الكلمات الواردة ضمن الأبيات.

## اسم زرقاء اليمامة:

تعددت أسماء تلك المرأة التي أكسبها الله ميزة عن غيرها، وهي قوة الإبصار للأشياء وإن كانت بعيدة، وهذه الميزة التي اتصفت بها حملت العرب أن يضربوا بها المثل، فقالوا: "أبصر من زرقاء اليمامة".

كما اتصفت بميزة ثانية وهي زرقة في عينيها وليس زرقة في لون بشرتها كما يتبادر إلى الذهن، والعيون الزرق نادرة عند العرب. وممن عرف من النساء عندهم بزرقة العيون ثلاث نساء هن: صاحبتنا زرقاء اليمامة، والزَّباء والبسوس.

---

(١٠) حمد الجاسر: مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، ص٢٨-٣١.

ولهذه الصفة النادرة سميت بـ "الزرقاء"، واسمها الثاني "اليمامة"، وهناك اسم ثالث سماها به البعض وهو "عَنَزٌ" وهذا الأخير عندي ليس بشيء. فأي من هذه الأسماء الثلاثة سماها به أهلها؟

### ١ - اليمامة:

من قراءتي للنصوص الواردة يبدو لي أن اسمها كان اليمامة حيث اشتهر عند العرب تسمية بناتهم بما يستحسنونه من الحيوانات والطيور وغيرها، وعندما كبرت واشتهرت بقوة الإبصار أطلق عليها الاسم الآخر "الزرقاء". يقول ابن منظور عن اليمامة في رسم "يمم" من كتابه لسان العرب: "اليمام: طائر، قيل هو أعم من الحمام، وقيل: والحمام هو البري الذي لا يألف البيوت. وقيل: اليمام البري من الحمام الذي لا طوق له. والحمام: كل مطوق كالقمري والدبسي والفاختة... وعند الجوهري: اليمام الوحشي، الواحدة يمامة... وقال الجوهري: اليمامة اسم جارية زرقاء كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام، يقال: أبصر من زرقاء اليمامة. واليمامة: القرية التي قصبتها حَجْرٌ، كان اسمها فيما خلا جَوًّا، وفي الصحاح، كان اسمها الجَوّ فسميت باسم هذه الجارية لكثرة ما أضيف إليها، وقيل: جَوّ اليمامة، والنسبة إلى اليمامة يمامي. وفي الحديث ذكر اليمامة، وهي الصقع المعروف شرقي الحجاز، ومدينتها العظمى حَجْرُ اليمامة، قال: وإنما سُمِّي اليمامة باسم امرأة كانت فيه تسكنه اسمها يمامة صُلِبَتْ على بابه..".

أقول: يظهر لي من الأقوال المستفيضة أن اسم زرقاء اليمامة الذي سماه به أهلها هو: اليمامة بنت سهم بن طسم. ومما يؤيد ما ذهبت إليه ما قاله تُبَّعٌ أو قيل على لسانه وهو الأقرب وذلك حينما اقتلع عينيها وصلبها على بوابة جَوّ:

فلا تُدعَ جَوٌّ ما بقيتُ بإسمها
ولكنها تدعى اليمامة مقبلا(١١)

## ٢ - الزرقاء:

حبا الله اليمامة زرقة في عينيها، وقوة إبصار بهاتين العينين الزرقاوين؛ الأمر الذي خلد ذكرها. وليت من كتبوا عنها اقتصروا على رواية ما حصل منها وقوة إبصارها حسب واقع أمرها دون مبالغة، ولكن يحلو لبعض المؤلفين إيراد الغث والسمين، وهذا مما يجعل الباحث عن حقيقة الوقائع في حيرة من أمره لما حصل من خلط عجيب في تلك المرويات، وقد يؤدي به الأمر إلى إنكار هذا الغث من القول مع سمينه.

ومن أمثال هؤلاء أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني حيث أورد في كتابه هذا كثيرًا من الروايات والقصص المنحولة، ولا أقصد بقولي هذا التقليل من قيمة هذا الكتاب فهو بمثابة خزانة من خزائن الأدب، غير أن الباحث فيه يجب أن يكون على حذر مما أورده فيه من المرويات التي لا يُعْتَدُّ بها، وخير مثال على هذا ما أورده عن زرقاء اليمامة.

---

(١١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ٥/٤٤٧.

كان هم أبو الفرج الأصفهاني الوحيد هو رصد المرويات على علاتها دون تمحيص بغية إمتاع القارئ بكل نادر وغريب بصرف النظر عن صدق هذا القول من عدمه.

وعندما ذكر صوتًا من الأصوات المغناة، وهي أبيات للنابغة الذبياني يمدح فيها النعمان بن المنذر ويعتذر إليه، ومنها:

قالت ألا لَيْتَما هذا الحمامُ لنا
إلى حَماَمَتِنَا ونصفُه فَقَد
فَحَسَّبوُه فَأَلفَوْه كما حَسَبَتْ
تِسْعًا وتسعين لم تَنْقُصْ ولم تَزِدِ
فكَمَّلَت مائةً فيها حَمَامَتُها
وأَسْرَعَتْ حِسْبَةً في ذلك العَدَدِ

قال: غناه ابن سريج خفيف ثقيل عن الهشامي. هذا خبر روي عن زرقاء اليمامة، ثم أورد بعد هذه أبياتًا ركيكة منسوبة إلى زرقاء اليمامة.

وهما بيتان يظهر عليهما الصنعة تنسب مرة للزرقاء ومرة تنسب لابنة الخَسّ غير أن الأولى أكملت العدد مئة بحمامتها، والثانية أكملته بقطاتها.

وقد استحسن بعض المتأخرين إيراد تلك الأبيات منسوبة إلى زرقاء اليمامة دون أن يتكلموا عن حقيقتها بل راحوا يفسرون ويؤكدون صحة عَدّ الزرقاء لهذا الحمام الطائر؛ لأن القوم تبعوه إلى الثَّمَد الذي ورده فحسبوه هناك وتأكدوا من عدده.

أقول: ليس هناك مانع من إيراد مثل هذه الروايات على سبيل التندر واختبار الذكاء بحل هذه الأحجية الحسابية مع ذكر مدى صحتها من عدمه، ولكنهم راحوا يؤكدون تلك الحسبة حتى إن بعض الرواة قال: إن هذا الحمام أو القطا وقع في شباك صياد هناك فأثبت لهم صحة العدد!!!

ورحم الله الشيخ حمد الجاسر حينما قال كما تقدم معنا وهو يتكلم عن زرقاء اليمامة وما قيل عن حِدَّة بصرها، وما حصل لجديس حينما غزاهم تُبَّع، من أن المؤرخين يوردون القصة مطولة، موشاة بكثير من الشعر على ألسنة الجديسيين وهو مَصْنُوعٌ بعد عهدهم بأحقاب طويلة، صنعه القصاص.

ومما يدل على صنعة هذه الأبيات التي تفنن الشراح في محاولة تصديقها؛ أنه لا يؤخذ بقول من قام بتعداد هذا الحمام أو القطا سواء من تتبعه إلى الثمد وعده هناك، أو في شباك الصياد. إذ ربما انضم إلى الحمام الطائر زيادة قبل وصوله للثمد أو كان هناك حمام سبقه إلى مورد الماء.

ولا يستبعد أن تكون زرقاء اليمامة جالسة مع صويحباتها فمر الحمام الوارد من فوق رؤوسهن فعدته وصادق صويحباتها على عدها للحمام؛ فأصبحت تلك الواقعة من النوادر التي رويت عنها، ولذا أشار إلى فطنتها وحكمها الجازم بعدد الحمام النابغة في أبياته المتقدمة.

أما أن زرقاء اليمامة قالت حينما مَرَّ الحمام مسرعًا إلى الثمد:

ليت الحمام ليه
إلى حمامتيه
ونصفه قديه
تم الحمام ميه

فهذان البيتان يظهر عليهما الوضع، وقد استطردت في الكلام حول هذه الأبيات من الشعر لألفت النظر إلى أن بعض الروايات لا يعتد بها وأن على الباحث في تحقيق الوقائع التاريخية، وكذا الأماكن الجغرافية أن يحرص على التمييز بين الروايات الصحيحة والروايات السقيمة حتى يصل إلى النتيجة التي يتوخاها، ولا يلتفت إلى تلك الروايات وأبيات الشعر الركيكة التي صنعها الشعراء وغناها المغنون في زمن أبي الفرج الأصفهاني؛ فكتابه مملوء بمثل هذه الأبيات المغناة التي منها الصحيح ومنها المنحول، فلنكن على حذر عند تحقيق الوقائع التاريخية وتحقيق الأماكن الجغرافية. ولعلنا نستخلص من الروايات المتواترة أن زرقاء اليمامة اسم منسوب إلى المكان "اليمامة" بعد أن سمي هذا المكان باسمها الذي سماها به أهلها الطسميون وهو اليمامة.

### ٣ - عَنْز:

من الأسماء التي أطلقت على زرقاء اليمامة "عَنْز"، وهذا الاسم يبدو لي أنه ألصق بصاحبة اليمامة إلصاقًا؛ لأنه اسم

لفتاة أخرى ورد اسمها في أحداث جَوَّ عندما غزاها تُبَّع. وممن ذكر عنز الشاعر النمر بن تولب العكلي، حيث قال في قصيدته التي يعاتب فيها زوجته عندما لامته على إسرافه في الكرم، ومطلعها:

قَالَتْ لتَعْذِلني مِنَ اللَّيل اسْمَع
سَفَهًا تُبَيِّتُكِ المَلامَةَ فاهْجَعي

إلى أن قال:

وَفَتَاتِهِمْ عَنْزٍ عَشِيَّةَ آنَسَتْ
من بَعْدِ مَرْأًى في البلادِ ومَسْمَع
قَالَتْ أرى رَجُلاً يُقَلِّبُ نَعْلَهُ
أُصُلاً وجَوٌّ آمِنٌ لم يَفْزَعِ(١٢)

وعندما أورد الأخفش الصغير في كتابه "الاختيارين" هذه القصيدة علق بقوله: "روى عوج: (عَشِيَّة أَبْصَرَتْ) يريد: هلا سألت بعَنْز التي كانت باليمامة، وهي الزَّرْقاءُ. وما أتى عليها فسيأتي علَي مثله. قال الأصمعي: (وفتاتهم) يريد طسمًا وجديسًا، وكنى عن أسمائهم، وتوهم أنهم قد عُرِفوا، حين أضاف عَنْزًا إليهم".

وقال في شرح البيت الذي بعده: "قال عوج: (وجَوٌّ آمِنٌ) اللفظ على البلد، والمراد أهل البلد، مثل واسألِ القرية. وقال الأصعمي: (آمن) يريد الموضع، لم يَفْزَعْ أهله. وكان تُبَّعٌ من

---

(١٢) ديوان النمر بن تولب العكلي، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، ص٨٦.

التبابعة، غزا طسمًا وجديسًا، وكانت لهم جارية تسمى عَنْزًا، وكانت من أبعد خلق الله بصرًا، وهي التي ذكرها النابغة في قصة الحمام... إلى آخر ما قال(١٣).

هنا نجد أن النمر بن تولب سمى المرأة التي أبصرت ربيئة تُبَّع يقلب نعله، سماها عنزًا، بينما المتواتر من الروايات أن اسمها الزرقاء، ولذا ضرب المثل بحِدَّة بصرها. كما نلحظ أن هناك تناقضًا في توقيت تلك الرؤية بين ما ذكره النمر بن تولب، حيث حددها أُصُلاً أي: بعد العصر، وبين ما ذكره الأعشى بقوله: "إذ يرفع الآل رأس الكلب فارتفعا" ومعروف أن الآل وقته الضحى. معنى هذا أن هناك تفاوتًا بين مفهوم الشاعرين، وهذا التفاوت يدلنا على أن كلاً منهما عبر عن تصوره للرواية التي يتناقلها الناس في زمنهم، ولا غرابة في تعدد الروايات؛ لأن تلك الحوادث موغلة في القدم وغير مدونة، وما حصل للقدماء كهذين الشاعرين حصل للمؤرخين بعد زمنهم؛ ولهذا نجد التفاوت بين الروايات.

وحتى نتعرف على أماكننا الجغرافية فإنه لا بد من ترجيح أحد القولين حتى نستدل على مسرح تلك الأحداث على ضوء من واقع الأرض، وليس من واقع تلك الأقوال المتضاربة. وعندي أن كفة الأعشى سترجح بكفّةِ النمر بن تولب، وذلك أن النمر بن تولب سمى المرأة عِنْزًا ومعروف أن عنزًا هذه امرأة غير زرقاء اليمامة، ونَجدُ جامع وشارح ديوان النمر بن تولب وشارحه وهو الدكتور مَحمد نبيل طريفي - أضاف

---

(١٣) الأخفش الصغير، كتاب الاختيارين، ص٢٧٢- ٢٧٣.

البيت الأخير من القصيدة بين قوسين هكذا:

[قَـالَتْ يَمَـامَـةُ أَحْـمِلُوني قَـائمًـا
إِنْ تَبْـعَـثُـوهُ بَارِكًـا بِي أُضْـرَعِ]

فإذا عرفنا أن يمامة هي زرقاء اليمامة، وهذه المسكينة لم تحظ بعناية وتدليل وتركب جملاً ليحملها عندما اصطفاها تُبَّعٌ لنفسه نظرًا لجمالها الفائق؛ وإنما اقْتُلِعَتْ عيناها وصلبت على بوابة جَوّ، أما التي أركبت على الجمل فهي عنز.

قال صاحب القاموس المحيط في رسم عَنْز: "... وعَنْزُ: امرأةٌ من طَسْم، سُبِيَتْ، فحملوها في هَوْدَج، وأَلْطَفُوهَا بالقول، والفعل، فقالت: هذا شَرَّ يَوْمِيَّ، أي: حين صِرْتُ أُكْرَمُ للسِّباءِ. ونَصْبُ (شَرٍّ) على معنى رَكِبَتْ في شَرِّ يَوْمَيْهَا".

وقال ياقوت الحموي في معجمه: "... كان تُبَّع لما ملك جَوًّا وقتل جديسًا اصطفى منهم امرأة حسناء لنفسه، فلما أراد أن يرتحل أمر بجمل فقُرِّبَ لها، ولم تكن رأته من قبل ذلك فقالت: ما هذا؟ قالوا: هو جمل، وكان اسمها عنز، فقالت: شَرُّ يوميَّ الذي أركب فيه الجملا، فصارت مثلاً"(١٤).

أقول: إن التفريق بين زرقاء اليمامة وعنز متواتر في المراجع القديمة.

---

(١٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ٤/٤٧٦.

وفي هذا النص الذي أورده ياقوت الحموي عبارة يبدو لي أنها من زيادات القصاص كما هي عادتهم في تشويه الحقائق التاريخية بما يدخلونه عليها من عبارات تستجلب علامات التعجب من سامعيهم. هذه العبارة هي: "أمر - أي تُبَّع - بجمل فقرب لها ولم تكن رأته من قبل". فهل يعقل أن امرأة من جديس تسكن اليمامة لم تكن رأت جملاً في حياتها؟!

ولعلي أكتفي بما ذكرته عن عَنْز وإلاَّ فالنصوص التي أوردت ذكرها كثيرة. ومما تقدم أقولُ: يبدو لي أن الشاعر النمر بن تولب سمع قصة غزو تبع لجديس من أفواه العامة في زمنه، وهي حكايات لها أصل من الحقيقة، ولكن أفسدها ما أدخل فيها من مبالغات. وما آفة الأخبار إلاَّ رواتها، فمن السهولة عندهم قلب اليمامة عَنْزًا!!

من هذا نعرف أن المرأة التي ألقت نظرتها التاريخية هي زرقاء اليمامة، وقد نظرت من فوق أحد المباني العالية؛ مما يدل على أن صاحبتنا متزوجة من أحد البارزين من جديس، ولهذا ألقت نظرتها من إحدى شرفات ذاك البنيان العالي. يقول الهمداني واصفًا تلك المباني الشامخة: "ثم القرية الخضراء خضراء حَجْر التي التقطها عبيد بين ثعلبة بن الدول، ولم يشرك فيها أحدًا، وهي حضور طسم وجديس وفيها آثارهم وحصونهم وبُتلهم - الواحد بتيل - وهو هَنٌّ مربَّع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين. قال أبو مالك: لحقت منها بناءً طوله مئتا ذراع في السماء.

قال: وقيل كان منها ما طوله خمسمئة ذراع، من أحدها نظرت زرقاء اليمامة إلى من نزل من جَوَّجان من رأس الدَّام مسيرة يومين وليلتين، وكانت جديس تسكن الخَضَرِمَة وكانت طسم تسكن الخضراء"(١٥).

## وقفة عند هذا النص:

يُعدُّ الهمداني - رحمه الله - من أكثر البلدانيين وصفًا لأماكن اليمامة ووصف مسارات الطرق القديمة المؤدية إليها، وما ذاك إلاَّ لأنه أخذ الوصف من شيخه أبي مالك أحمد بن محمد بن سَهْل بن صباح اليشكري الذي قال عنه: "إنه كان قد سكن هذه المواضع ونجعها ورعاها وسافر فيها وكان بها خبيرًا"(١٦)، وهذا لا يعني أننا لن نناقش ما يورده الهمداني من أقوال وإن كانت روايته عن شيخه أبي مالك. فمن المحتمل أن يكون الهمداني لم يستوعب الكلام الذي أخبره به أبو مالك؛ نظرًا لأن الهمداني نفسه لم يمش في أرض اليمامة، وحتى لو استوعب رواية شيخه فلن نتورع عن مناقشة ما قاله أبو مالك متى كان لهذه المناقشة ما يبررها؛ لأننا نحاول أن نصل إلى التحقيق الصائب فيما نسعى إلى تحقيقه، وقد ناقشنا فيما تقدم ما ورد في شعر النمر بن تولب العكلي مع أنه أقدم منهما عهدًا. وقد عَنَّ لي في هذا النص ملحوظتان:

---

(١٥) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، دار اليمامة، ص٢٨٤.

(١٦) المرجع السابق، ص٢٧٩.

**الملحوظة الأولى:** أفادنا أبو مالك بأنه لحق من تلك البتل المستطيلة في السماء بناءً طوله مئتا ذراع. وهذه بلا شك مشاهدة عيان وليس من رأى كمن سمع، أما عن قوله: "كان منها ما طوله خمسمئة ذراع من أحدها نظرت زرقاء اليمامة"، فيبدو لي أن هذا الطول مبالغ فيه؛ حيث من المستبعد أن يبلغ بناء من الطين هذا العلو الشاهق.

والرجل لم يقل إني وقفت عليه مثل البناء الذي حدد طوله على ضوء المشاهدة، بل عن قول قيل له، ومن المحتمل أن يكون هذا من باب المبالغة في طول تلك المباني.

**الملحوظة الثانية:** كان أبو مالك يتكلم في وصفه عن خضراء حَجْر وحصونها وبتلها، وقال: إنه من أحد هذه البتل "نظرت زرقاء اليمامة إلى من نزل من جَوّجان من رأس الدَّام مسيرة يومين وليلتين". فإذا عرفنا أن خضراء حجر هي الرياض حديثًا، وأن الدَّام هو القف المرتفع الواقع جنوب الخرج، وقد أصاب الشيخ عبدالله بن خميس حينما حدده بعد إيراده لأقوال المتقدمين بقوله: "قلت: ويظهر من تحديدهم أنه هذا القُفّ المعرض جنوبي الخرج شرقيه، والذي تستند على واجهته الشمالية والغربية عيون الخرج، والخرج يشكل حوله زاوية منفرجة قاعدتها المنيصف وطرفها الغربي خفس دغرة، وطرفها الشرقي السَّهباء"(١٧).

أقول: إذا عرفنا أن الدَّام الذي انحدر منه الجيش الغازي باتجاه الشمال هو القف الذي يركب عيون الخرج من الجهة

---

(١٧) عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ١/٤٠٦.

الجنوبية، وأن خضراء حَجْر هي الرياض، فإن المسافة بينهما على السمت مئة كيلو متر على الأكثر، وإذا قلنا إن هذه المسافة تعادل يومين وليلتين كما ذكر، فهل تتمكن زرقاء اليمامة من مشاهدة من نزل من ذلك القُفّ؟

**الجواب:** إن مشاهدتها ممتنعة وذلك بسبب الموانع الطبيعية كالمرتفعات الجبلية. يضاف إلى هذا أن خضراء حَجْر في منخفض من الأرض، ولو افترضنا وجود مرصد حديث فوق مرتفع الدَّام جنوب الخرج ونظر منه ناظر لما تمكن من مشاهدة أبراج الرياض العالية حاليًا وذلك بسبب انخفاض الأرض ووجود ما يحول دون الرؤية.

وهناك أمر آخر وهو أن زرقاء اليمامة عندما نظرت تلك النظرة المشؤومة عليها لم تكن من أحد المباني العالية في خضراء حَجْر وإنما نظرت من أحد مباني جَوّ الخضرمة أي بلدة اليمامة حاليًا لكونها متزوجة من أحد رجال جديس القاطنين في جَوّ. وجَوّ تبعد عن مرتفع الدام عشرين كيلاً فقط، وهذا يعني أننا أمام كلام ألقي على عواهنه، وفيه شيء من المبالغة. أما عن جَوَّجان الوارد ذكره في قول الهمداني هذا فسوف يكون لي حوله وقفة طويلة عند الكلام عن الموضع الذي رأت عليه زرقاء اليمامة رَبيئَةَ تُبَّعٍ عندما أشرف عليه.

ولا يفهم من قولي هذا أنني أفرغ هذا النص من محتواه؛ فأبو مالك وصف للهمداني الأماكن التي وقف عليها، ولا غبار على وصفه لحالة البلاد في عصره، مثل كلامه عن

خضراء حَجْر وغيرها، أما ما يتعلق بأخبار طسم وجديس فيستوي مع غيره؛ لكون كل واحد منهم يروي تلك الأخبار التي عفا عليها الزمن حسبما سمعه من الآخرين. ومعروف أن تلك الأخبار عن الأمم القديمة دخلها شيء من الزيادات والمبالغة في الوصف. والمطلوب منا هو غربلة هذه النصوص الواردة لنستخلص منها ما يقرب من حقيقة الأمور التي جرت في ذاك العصر المتقدم بما يتمشى مع واقع الأرض؛ حيث ما زالت بعض المواضع مثل المرتفعات باقية لم تتغير.

## الجبل الذي رأت زرقاء اليمامة فوقه ربيئة تُبَّع:

المكان الذي نظرت من فوقه زرقاء اليمامة هو أحد الحصون العالية في جَوّ وهو آخر حصن استولى عليه تُبَّع. والسؤال المطلوب الإجابة عنه هو: أين المكان المرتفع الذي صعده الربيئة ليستطلع ما وراءه باتجاه جَوّ فرمقته زرقاء اليمامة وأخبرت قومها بما شاهدته؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال من الصعوبة بمكان؛ نظرًا لاختلاف أقوال القدماء حول تحديد مكانه، منهم من قال: إنه مرتفع الدام ومنهم من قال: إنه جبل الكلب، وهناك فرق بين الموضعين من حيث المكان والبعد عن جَوّ؛ فالدام يقع جنوب جو اليمامة والكلب يقع غربًا منه مع ميل إلى الجنوب. وما علينا إلاَّ استعراض تلك الأقوال لنستخلص منها معرفة المكان الذي نظرت إليه الزرقاء. ولنبدأ بما قاله مؤلف معجم اليمامة عن ذاك المكان، قال وهو يتكلم عن الكلب: "... رأس جبل بارز جدًا، يقع غرب جنوب بلد الدُّلَم من الخرج.. ونحوه

نظرت زرقاء اليمامة من قمة بارزة في ظهر الدام إلى طلائع جيش حسان بن تُبَّع..."، إلى أن قال: "وعرف ياقوت رأس الكلب بقوله: والكلب جبل بينه وبين اليمامة يوم؛ وهو الجبل الذي رأت عليه زرقاء اليمامة الربيئة التي مع تُبَّع". ولم يزد الهمداني على قوله: "رأس الكلب: جبل باليمامة".

وحتى الآن يعرف رأس الكلب عند العارفين من أهل تلك الناحية، وإليه أشار زيد بن زامل من أمراء الخرج الأقدمين، فقال:

لي ديرة بالسيف عديت عنها
وانا عليها مولع واعول عوال
يا الله عسى نفسي إلى جا حتتها
ما بين خشم الكلب والعرق والجال(١٨)

انتهى ما قاله باختصار.

قال الشيخ عبدالله بن خميس في تعريفه هنا للكلب: إنه رأس جبل بارز جدًا. ويبدو لي أنه أخذ هذا الوصف من قول الأعشى:

"إذ يرفع الآل رأس الكلب فارتفعا"

والكلب ما زال معروفًا باسمه حتى الآن يمر من طرفه الجنوبي طريق الأسفلت المتفرع من الطريق العام المتجه إلى وادي الدواسر، هذا الطريق المتفرع ذاهب جهة الغرب إلى الخبي وماوان، وقبل الوصول إلى الخبي يحاذيه الطريق.

---

(١٨) عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ٢/٣٠٩.

وهذا الجبل ليس قمة واحدة حتى نخصه برأس بارز، وإنما هو سلسلة من الجبال والقور الممتدة من الجنوب إلى الشمال، يحدها من ناحية الجنوب هذا الطريق المسفلت الذي وصفنا، ويحدها من الشمال الطريق المتجه غربًا إلى العين ومن ورائه القور التي من بينها الجبل المسمى أبو ولد نظرًا لبروز في عرضه فشبه برجل يحمل ولدًا. وأميل إلى القول الذي ذكره ياقوت في معجمه بشأن وصف جبل الكلب حيث قال: "رأس الكلب: جبل باليمامة، ويقال: إنما هي قارات تسمى رأس الكلب..."(١٩).

أقول: هذه القارات الممتدة غربٍ جو اليمامة هي ما يسمى بالكلب، أو رأس الكلب. ولعل قائلاً يقول: ولماذا سميت برأس الكلب؟ فأقول: رغم مقولة "الأسماء لا تعلل" فإن لكل مسمى سببًا لتسميته، قد يعرف هذا السبب وقد لا يعرف. ويبدو لي أن سبب تسمية هذه القور بهذا الاسم هو أن إحداها يوجد في عرضها شكل بارز يخيل للناظر إليه من إحدى الزوايا أنه شبيه برأس الكلب، ولهذا جاءت التسمية: مثله مثل أبو ولد. انظر إلى صورة هذا الشكل البارز المنظر رقم (١) وانظر إلى شكل أبو ولد المنظر رقم (٢).

أما عن تعليق المؤلف على قول ياقوت: "والكلب جبل بينه وبين اليمامة يوم" بقوله تهميشًا: "قوله اليمامة يقصد هنا قاعدتها حَجْر". أقول: لست مع الشيخ عبدالله بن خميس

---

(١٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ص١٤٣.

فيما ذهب إليه؛ فكلمة اليمامة في هذا النص المقصود بها مدينة اليمامة (جو قديمًا) وهي التي نظرت منها زرقاء اليمامة، فإذا عرفنا أن حَجْر (الرياض حاليًا) تبعد عن الكلب قرابة مئة كيلو متر؛ فهذه المسافة أكثر من يوم لسير الإبل، بينما اليمامة التي ما زالت محتفظة باسمها لا تبعد عن جبل الكلب سوى أربعين كيلاً، وهذه المسافة أقرب إلى واقع سير الإبل، يضاف إلى هذا تعذر رؤية جبل أو جبال الكلب من جهة حجر اليمامة لوجود الموانع الطبيعية.

ويظهر لي أن المكان المنظور منه والمكان المنظور إليه كان محل إشكال عند مؤلف معجم اليمامة، ولهذا نجده يقول وهو يتكلم عن موضع بَلادَ: "... وهناك شِعْب ينحدر من صفحة طويق مما يلي شعبي كلاوي والملحة، وينحدر مارًا تحت الطريق المعبد، ويفضي إلى ريع بين جبال تقوم فيه مبان أثرية وسدود وآبار وأسوار وحجايا في رؤوس الجبال، تدل على أن هذه المنطقة يومًا ما كانت ذات عمران وسكان وقوة ومنعة، ثم يفضي سيلها إلى الشمال من المزاحمية هذه المنطقة والشعب تسمى البليدة وهي أقرب هذه المسميات إلى حَجْر، ويتناقل رواة العوام من أهل تلك الجهة أن زرقاء اليمامة قد نظرت نظرتها التاريخية من الجبل السامق المطل على هذه البليدة، وفي ذلك نظر؛ فإنها رأت القوم وهم مقبلون مما يلي حدباء قذلة (الهلباء قديمًا) وهذه قطعًا لا ترى من هذا المكان، وإنما من مرتفعات طويق التي بين العمارية ولبن بطن الخال قديمًا. والأصح أن الزرقاء نظرت

نظرتها التاريخية من جبل الدام من الخرج مما يلي جَوجَان، نظرت من تلقاء رأس الكلب الأنف المعروف هنالك في جبل جنوب الدلم من الخرج..."(٢٠).

ولقد كان بودي أن الشيخ عبدالله بن خميس لم يلق بالاً لهذه المقولة من أن زرقاء اليمامة ألقت نظرتها من فوق الجبل المطل على البليدة الواقعة غرب مدينة الرياض شمالاً من المزاحمية، وأنه لم يطلق لقلمه العنان ليحلل من أين ألقت الزرقاء نظرتها من فوق تلك المرتفعات.

أما عن قوله: والأصح أن الزرقاء نظرت من جبل الدام من الخرج"؛ فهذا يعني أن هناك قولاً صحيحًا وقولاً أصح. والواقع أن ما رواه لنا عن العوام ليس له جانب من الصحة، وقد يكون سبب هذه المقولة هو قرب البليدة من جَوّ المزاحمية فحصل لبس بين هذا الجَوّ وبين جَوّ الخضرمة، وفرق بين الجَوَّين مثل الفرق بين الدّام وبين الكَلْب!!!

أما عن قوله – سلمه الله –: إن الزرقاء نظرت من جبل الدام مما يلي جوجان، نظرت من تلقاء رأس الكلب. فهذا القول يدل على أنه يرى أيضًا أن زرقاء اليمامة ألقت نظرتها وهي فوق جبل الدام، ومما يؤيد هذا قوله في رسم الكلب: "الكلب.. ونحوه نظرت زرقاء اليمامة من قمة بارزة في ظهر الدَّام إلى طلائع جيش حسان بن تُبَّع". وأقول: لست أدري ما الذي أتى بزرقاء اليمامة إلى هذه القمة البارزة في ظهر الدام حتى ألقت نظرتها المشهورة، فهل كانت ترعى غنمها

---

(٢٠) عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ١/١٨٦.

هناك؟! إن الثابت من أقوال المتقدمين أنها ألقت نظرتها من أعلى بَتِيِّل، وهو مبنى من الطين عال في السماء، وهو واحد من تلك البتل التي اشتهرت في اليمامة وحَجْرها، أما الكلام عن الدَّام وجَوّجَان بالجاء المعجمة أو حَوّجان بالحاء المهملة؛ فهذا موضوع يطول بحثه.

## مقدار بعْد المكان المنظور إليه:

لا إشكال بأن زرقاء اليمامة ترى الأشياء من مكان بعيد، وهذه ميزة وهبها الله لها؛ وإلاَّ لما ضرب المثل بقوة إبصارها، وقوة الإبصار يمنحها الباري سبحانه؛ ولذا يتفاوت الناس عندما ينظرون لشيء بعيد، فالناس يخرجون لمحاولة رؤية هلال رمضان، ولا يراه منهم وإن كثروا إلاَّ واحد أو اثنان. وقد تفاوتت الروايات حول مسافة رؤية زرقاء اليمامة لربيئة تُبَّع عندما صعد الجبل للاستطلاع، وكذا مشاهدة الجيش الغازي عندما أقبل، وإن كان أفراده قد نفذوا تلك الحيلة وهي قلع الأشجار والتعمية بها على من يحاول النظر إلى زحفهم من بُعْدٍ.

وهذه أمور حفظتها الأساطير المروية على مَرّ العصور، ولا يمكن إنكارها إلاَّ بدليل قاطع، ولو حاولنا إنكار كثير من الروايات المبالغ في وصف أحداثها لجنينا على تاريخنا، وإنما الواجب هو تجريد تلك الروايات من المبالغات التي أدخلت عليها، وانتشال الصحيح من بين تلك الروايات التي شوهها القصاص بأكاذيبهم. وفيما يخص حادثة زرقاء اليمامة؛ فقد بولغ في مسافة مدى رؤيتها لهذا الجيش الغازي؛ الأمر الذي

حدا ببعض من كتبوا عنها أن يبعدوا المكان الذي نظرت منه عن المكان الذي نظرت إليه، وهو جبل الكلب.

١ - قال الهمداني: إنها نظرت إلى من نزل من جوجان من رأس الدَّام مسيرة يومين وليلتين (صفة جزيرة العرب: ص٢٨٤).

٢ - قال ياقوت في رسم الكلب: وهو الجبل الذي رأت عليه زرقاء اليمامة الربيئة، بينه وبين اليمامة يوم.

٣ - وقال أيضًا في رسم اليمامة: فسار تُبَّع في جيوشه حتى قرب من جَوّ، فلما كان على مقدار ليلة منها عند جبل هناك... إلخ.

٤ - قال صاحب كتاب "الأغاني" وهو يتكلم عن هند بنت النعمان: فإن الزرقاء كانت ترى الجيش من مسيرة ثلاثين ميلاً(٢١).

٥ - قال صاحب "لسان العرب" رواية عن الجوهري، في مادة يمم:

اليمامة اسم جارية زرقاء كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام.

٦ - قال جواد علي وهو يتكلم عن العرب البائدة: "وقد زعم أن زرقاء اليمامة ترى من مسيرة ثلاثة أيام"(٢٢).

---

(٢١) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ١٢٥/٢.

(٢٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ٣١٩/١.

٧ - وفي "خزانة الأدب" للبغدادي، وهو يتكلم عن فتاة الحي زرقاء اليمامة قال: "فلما صاروا من جو على مسيرة ثلاث ليال صعدت الأطم الذي يقال له الكلب فنظرت إليهم"(٢٣).

٨ - قال الأخفش الأصغر في كتاب "الاختيارين" وهو يشرح قصيدة النمر بن تولب: "فلما كانوا على مسيرة يومين..." إلخ ص٢٧٣.

٩ - أورد القزويني في كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد" قصة غزو تُبَّع لليمامة، فقال: "...إنها الزرقاء ترى الشخص من مسيرة يوم وليلة"(٢٤).

وهناك أقوال أخرى. فأنت ترى معي أن الرواة غير متفقين على تحديد المسافة بين المنظور منه والمنظور إليه، ومنهم من يلقي القول عن غير معرفة بما يتكلم عنه مثلما قال البغدادي في رقم (٧) أن الزرقاء صعدت الأطم الذي يقال له الكلب!!! ولم يدر أن الكلب جبل لا علاقة له بآطام جديس التي نظرت من أحدها زرقاء اليمامة.

## ترجيحي للمكان الذي نظرت إليه زرقاء اليمامة:

المكان الذي نظرت منه زرقاء اليمامة لا إشكال عندي بأنه من أحد مباني جَوّ (اليمامة) أما المكان الذي شاهدت فوقه ربيئة تُبَّع فيبدو لي أنه جبل الكلب المعروف باسمه حتى الآن،

---

(٢٣) البغدادي، خزانة الأدب، ١٠/٢٥٥.

(٢٤) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص١٣٤.

ولعل أصح ما قيل عنه هو شعر الأعشى كما قال الشيخ حمد الجاسر؛ حيث قال الأعشى:

إذ نظرت نظرة ليست بكاذبة
إذ يرفع الآل رأس الكلب فارتفعا

فعندما وصل تُبَّع بجيشه إلى مشارف جو كان وصوله مع طريق قديم ما زالت شواهده قائمة حتى الآن، وحتى لا يُرى هذا الجيش أقام خلفه وبعث استطلاعاته ومنها ذاك الذي صعد فوق رأس الكلب فانقطع حذاؤه، وعندما زحف الجيش وخلَّف الجبل وراء ظهره رأت زرقاء اليمامة شيئًا مقبلاً لم تتحقق منه بسبب تلك الحيلة التي عمد إليها تُبَّع حيث أصدر أمره للمقاتلين بأن يتستروا وراء أشجار قطعوها لإيهام من ينظر إليهم من بُعْد.

ولكن تلك الحيلة لم تنطل على الزرقاء؛ حيث أشعرت قومها بما شاهدته. قد يقول قائل: هذه من تحسينات القصاص. فأقول: ما دامت النصوص تكلمت عن هذه الواقعة، وهذه بلا شك من حيل الحروب، وحتى في وقتنا الحالي نرى المقاتلين في وسط الغابات وقد موهوا أجسامهم بغصون الأشجار، أليس كذلك؟

إن جبل الكلب يبعد عن جَوّ اليمامة البلدة، قرابة أربعين كيلاً فقط، وهذه المسافة معقولة بالنسبة لنظر زرقاء اليمامة؛ خاصة إذا عرفنا أنه لا يحول بين اليمامة وبين جبل الكلب عوائق طبيعية مثل المرتفعات الجبلية أو الرملية؛ ولذا فإني أرجح المدة التي ذكرها ياقوت الحموي، وهي مسافة

يوم، وفي قوله الثاني مسافة ليلة، ومعروف أن القادم من جهة جبل الكلب سيصل إلى مشارف مزارع جَوّ ونخيله قبل وصوله لعامر البلدة.

أما ما زاد عن هذه المسافة فلا يمكن رؤية أي قادم لليمامة؛ بسبب المرتفعات الجنوبية المحيطة بالمنطقة. أما القول بأن زرقاء اليمامة ألقت نظرتها تلك من أعلى أحد بُتُل حَجْر (الرياض حاليًا) وهو ما أورده الهمداني في كتابه صفةَ جزيرة العرب رواية عن شيخه أبي مالك، حيث نظرت إلى من نزل من جَوّجان من رأس الدام مسيرة يومين وليلتين، فقد استبعدت هذا القول لاستحالته كما أسلفت.

والهمداني يعرف أنه يقدم لليمامة طريق من الجنوب يمر بالدَّام، وكذا طريق آخر غربًا منه يمر عبر وادي السَّوْط ويترك جبل الكلب شرقًا منه غير بعيد، ولكن الهمداني رشح الطريق الأول، ولو أردنا الأخذ بقوله هذا وأن زرقاء اليمامة ألقت نظرتها من أحد بُتُلِ حَجْر اليمامة لمنعنا من ذلك تعذر الرؤية. أما إذا قلنا إنها - أي زرقاء اليمامة - ألقت نظرتها من أحد بتل جَوّ باتجاه الدام؛ فهو قول مستبعد أيضًا؛ لأن النازل من مرتفع الدام باتجاه جَوّ لا يبعد سوى عشرين كيلاً فقط.

وهذا الطريق الذي قلنا: إن تُبَّعًا سلكه في قدومه لليمامة غازيًا، طريق يحكي قصة تاريخ ضارب في عمق الزمن، وهو طريق ليس بغريب على تبابعة اليمن ولا سيما أن منهم تُبَّع الملقب بذي المنار. قال عنه ابن دريد: "أبرهة ذو المنار تُبَّع،

وأبرهة اسم حبشي، ذو المنار هو أول من بنى الأميال على الطرق، فسمي ذا المنار"(٢٥).

أثناء تحقيقي لمسار هذا الطريق الموغل في القدم كنت أقف عند كل تكثف لأعلامه ودلالاته المبالغ في بنائها وأسأل: من بناها وفي أي عصر تم تنفيذها، وكم من الرجال الأشداء قاموا بتنفيذ هذا العمل الجبار؟!!

إنها أسئلة لا تنتهي، ولكننا أمام أمر ليس بالخيال وإنما هو حقيقة ملموسة، وقد وصف أسلافنا هذه الأعلام والدلالات عند سلوكهم مثل هذا الطريق. قال الشاعر أبو ذؤيب الهذلي:

على طرق كَنُحُورِ الرِّكا    ب تَحْسَبُ آرَامَهُنَّ الصُّرُوحَا
بِهِنَّ نَعَامٌ بناه الرِّجا    ل تُلْقِي النَّفائضُ فيها السَّرِيحَا(٢٦)

وقال ابن لجأ:

ودون مزاركم لسرى المطايا    من الأعلام أشباه وبيدُ
كأن أرومها والآل طاف    على أرجائها نبط قعودُ(٢٧)

وقال الأعشى وهو من أهل اليمامة:

---

(٢٥) ابن دريد، الاشتقاق، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص٥٣٤.

(٢٦) أبو سعيد السكري، شرح أشعار الهذليين، مطبعة المدني، القاهرة، ٣٠٣/١.

(٢٧) ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ٢٩٨/٧.

وبيداء تحسب آرامها　　رجَالَ إِيَادٍ بأجلادها
يقول الدليل بها للصحا　　ب لا تخطئوا بعض أرصادها(٢٨)

وفي المراحل الأخيرة من تحقيق مسار الطريق المار بحوطة بني تميم ثم وادي السَّوْط، ثم غربي جبل الكلب أحببت أن يشاركني بعض المهتمين بتاريخ بلادنا وخاصة من الأكاديميين؛ وذلك للاستتارة بآرائهم عسى أن نتمكن من حَلِّ رموز تلك الشواهد الأثرية المكثفة على مسارات الطرق بشكل لافت للنظر.

وفي يوم الخميس ١٤٢٨/٤/٢٣هـ شارك في الرحلة الميدانية سعادة الدكتور رشود بن محمد الخريف وقد كان لمشاركته الأثر الطيب؛ حيث عَرَّفنا على مسارب الأودية جنوب حوطة بني تميم وشمالها لكونه من أهلها. وقد شارك طيلة ذاك اليوم من الصباح حتى غروب الشمس في الصعود إلى المرتفعات الجبلية والهبوط منها للوقوف على علامات الطريق.

أما في يوم الجمعة فقد انضم إلينا معالي أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الدكتور فهد بن عبدالله السماري؛ حيث تجولنا في وادي السَّوْط وما حوله، وكان يرافقه من الدارة الأستاذ عبدالرحمن بن محمد السدحان، ولا غرابة في مشاركتهما؛ لكون دارة الملك عبدالعزيز هي المحتضنة لمشروع

---

(٢٨) ميمون بن قيس، شرح ديوان الأعشى الكبير، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، ص١٢٤.

تحقيق مسارات طرق القوافل القديمة وفق توجيهات كريمة من راعي العلم والمعرفة التاريخية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، يحفظه الله. (انظر إلى بعض أشكال وأنماط تلك الشواهد الأثرية المكثفة هناك الصور رقم (٣) و (٤) و(٥)).

وإني لأشكر من شارك في هذه الرحلة؛ حيث أحسست أن هناك من يهتم بما أقوم به من عمل؛ وهذا بلا شك مما يشجعني على بذل المزيد من الجهد قدر الطاقة لعلنا نتوصل إلى حقائق الأمور التي تترجمها لنا الأرض التي تحتضن تلك الشواهد الغريبة المحيرة التي مضى على إنشائها آلاف السنين، والتي منها نستقرئ تاريخنا القديم الذي لم يدون. وهذه الشواهد التي تم تتبعها مرت غربي جبل الكلب، (انظر إلى بعض أنماطها الصور رقم (٦) و(٧) و(٨)).

ولا يفوتني أن أشكر رفيق الرحلات الميدانية عبر هذا الطريق الأستاذ سعد بن عبدالعزيز السالم وذلك من مشارف نجران حتى الوصول إلى اليمامة وحَجْرِها حيث تحمل معي مشاق البحث ومفاجآته.

## خلاصة البحث:

ذكر المؤرخون أن طَسْمًا و جَدِيسًا من الأمم العربية البائدة، وكانت طسم تسكن جَوّ الخضرمة (اليمامة) في محافظة الخرج حاليًا.

وكانت الزرقاء، واسمها (اليمامة بنت سهم بن طسم) متزوجة في جديس وتسكن جَوّ، ولظلم ملكهم وجبروته - وهو من طسم -

أقدم الجديسيون على قتله هو وكبار أعوانه في قصة مشهورة.

وقد استعان الطسميون بملك اليمن تُبَّع فغزا جديسًا، وعندما اقترب الجيش الغازي من جَوّ الذي تقطنه زرقاء اليمامة المشهورة بقوة بصرها - حيث أصبح يضرب بها المثل فيقال أبصر من زرقاء اليمامة - أمر تُبَّع ربيئة له بأن يصعد فوق الجبل الذي توقف عنده في آخر مرحلة من مسيره ليتطلع له، وهذا الجبل يسمى الكلب وما يزال محتفظًا باسمه القديم حتى الآن.

كانت زرقاء اليمامة تجيل نظرها الثاقب كعادتها من فوق أحد الحصون العالية في جَوّ فشاهدت الربيئة وهو فوق أعلى الجبل يعالج شيئًا بأسنانه لم تتبين حقيقة هذا الشيء، فأخبرت قومها بما رأته، وعندما سألوها عن الذي شاهدته قالت: رأيت رجلاً يعرش عظمًا أو يخصف نعلاً، ولكنهم لم يصدقوها؛ وإلى هذا أشار الأعشى في قصيدته حيث قال:

قَالَتْ أَرَى رَجُلاً في كَفِّه كَتِفٌ
أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِي أَيَّةً صَنَعَا

فصبحهم الجيش وقتل وسبى ودَمَّرَ الحصون العالية، واقتلع تُبَّع عيني الزرقاء وعلقها على بوابة جَوّ، وأطلق على جَوّ اسم اليمامة وهو اسم الزرقاء، وقد لقبت بالزرقاء نظرًا لزرقة في عينيها، وزرقة العيون لم تكن مألوفة عند العرب.

ولقد تعددت الآراء حول المكان الذي نظرت منه زرقاء اليمامة وكذا المكان الذي نظرت إليه كما هو واضح من أقوالهم في صلب البحث، وقد استخلصت من النصوص الواردة ومن واقع الأرض وكذا مسارات الطرق القديمة القادمة إلى اليمامة من جهة الجنوب؛ أن المكان الذي نظرت منه تلك النظرة التاريخية هو أحد بُتُل جَوٍّ الخضرمة، وأن المكان الذي نظرتِ إليه هو جبل الكلب َالواقع غرب جَوّ على بعد أربعين كيلاً.

وهذا ما يتمشى مع النصوص الواردة التي رجحتها. أملي أن أكون قد وفقت إلى الصواب فيما كتبته، وما توفيقي إلاّ بالله هو حسبي ونعم الوكيل.

# الملاحق

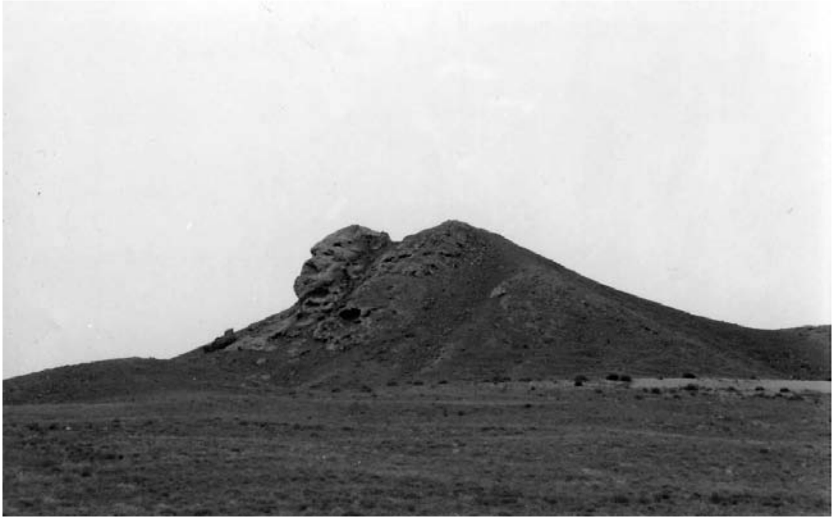

صورة رقم (١)

قارة من قور جبل الكلب

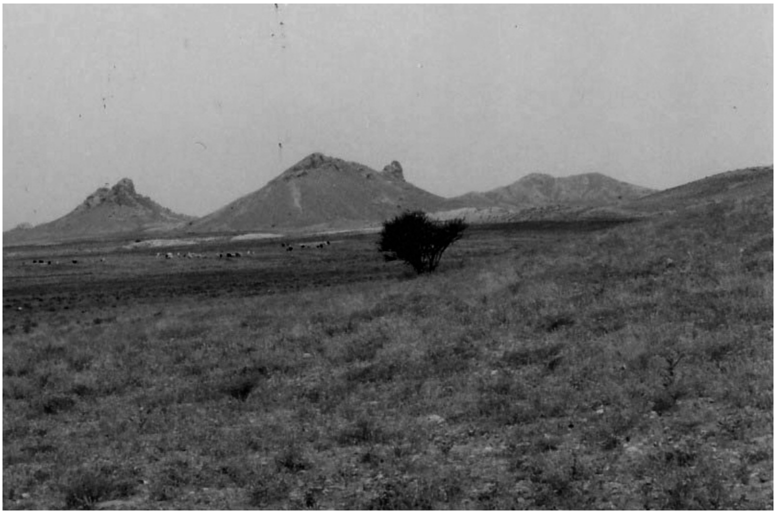

صورة رقم (٢)

جبل أبو ولد

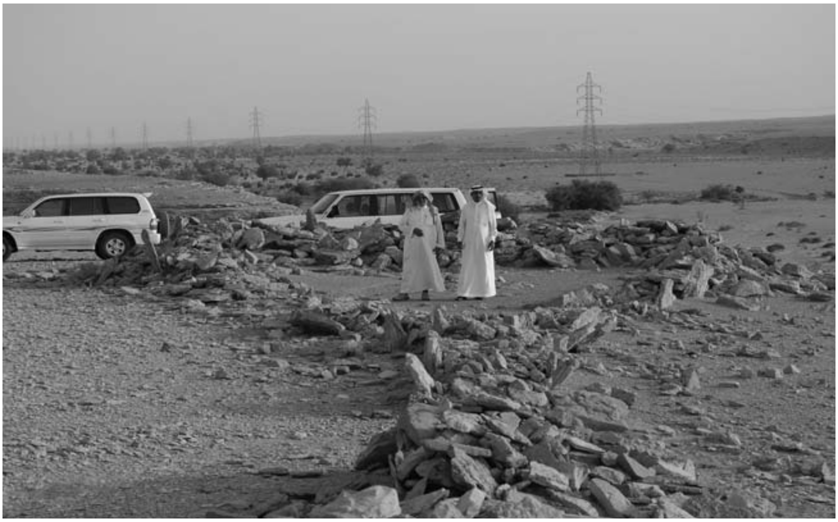

صورة رقم (٣)

رأس أحد المذنبات الطويلة

صورة رقم (٤)

فحص أحد المذيلات ومن ورائه ركم كبير

صورة رقم (٥)

نقاش تاريخي في وادي السواط

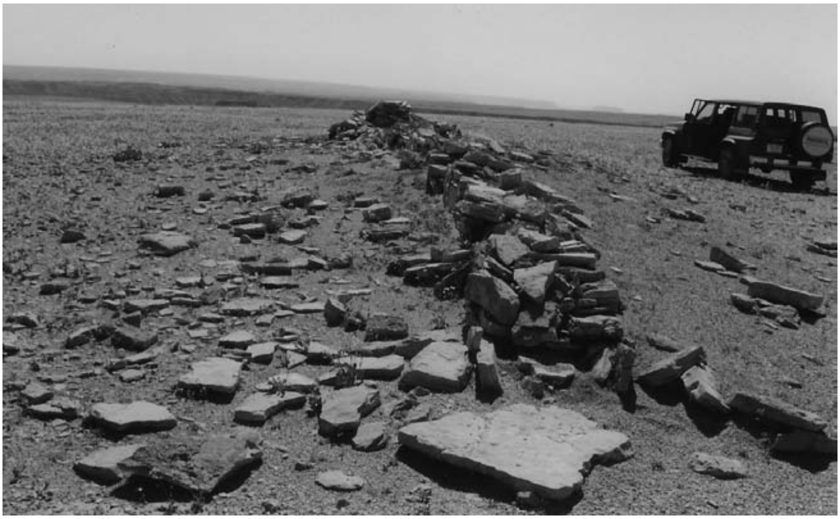

صورة رقم (٦)

أحد الأذيال شمال وادي ماوان

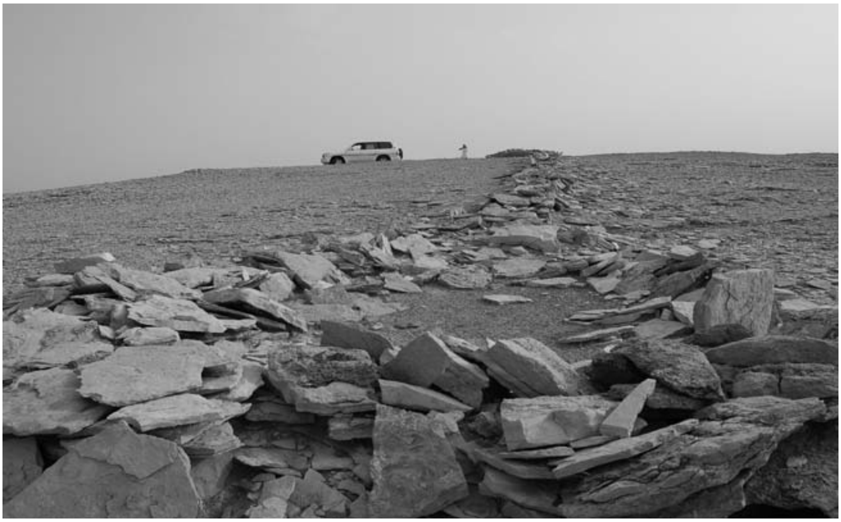

صورة رقم (٧)

أحد المذيلات غرب جبل الكلب

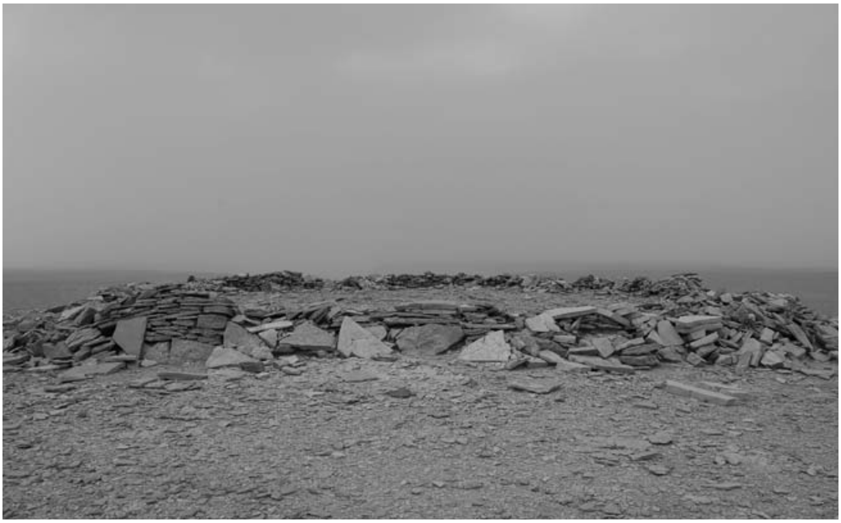

صورة رقم (٨)

إحدى الدوائر غرب جبل الكلب